

صورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية رواية "تاء الخجل" لفضيلة الفاروق أنموذجا

سلطاني فاروق طالب دكتوراه

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة.

L'enfance est un composant romancier riche en signes socio- culturels. Il nous fait connaître le processus d'évolution d'une société quelconque. C'est un indicateur très important pour connaître les événements à travers l'écriture narrative. De ce fait, l'enfance est un thème d'une grande valeur au sein du roman algérien. A cet effet, la romancière algérienne Fadhila ALFAROUK, n'a pas omit tout en s'exprimant sur l'enfance de sexe féminin malgré le caractère délicat voire sensible du thème. C'est pour cette raison que nous avons choisis cette étude « l'image de l'enfance – féminin dans le roman algérien » et le roman « تاء الخجل » de Fadhila ALFAROUK en tant que modèle.

الطفولة من حيث المحتوى، مكوّن روائي، غنيّ بالدلالات، السيوثقافية، التي تتيح لنا معرفة مسار التطور لمجتمع من المجتمعات، وفيما يتعلّق بالواقع الجزائري، فإنّ الطفولة مؤشّر مهمّ لإعادة قراءة تطوّر الأحداث بوسيلة الكتابة السردية، لذلك نال هذا الموضوع حقه في كثير من النصوص السردية الجزائرية، فالروائية فضيلة الفاروق تعد من الأصوات التي لم تمس الطفولة الأنثوية حقها في التعبير عن نفسها، رغم حساسية الموضوع ما جعلنا نختار فكرة: صورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية رواية " تاء الخجل" لفضيلة الفاروق موضوعا للدراسة.

مقدمة:

شكلت الرواية جنسا أدبيا مهما للروائيين الجزائريين، حيث إستطاعوا من خلالها صياغة رؤيتهم إتجاه الحياة ومراحلها المتعددة والمتنوعة، بأدبية تعكس المتخيل الذي ينشده الروائي في المواضيع التي يتطرق لها في الرواية، فالطفولة الأنثوية من المواضيع الهامة التي إشتغلت عليها الرواية الجزائرية، وتمثلت لها دورا بشخصية روائية في المتن المحكي، تحمل دلالة متباينة بتباين الرؤية الروائية ذاتها في المتخيل السردي من جهة ولقيمة الموضوع ذاته من جهة أخرى وفق سياق معين، بتصوير يعكس رؤية الإختلاف إتجاه الأنثى تكون فيها الفوارق البيولوجية والنفسية منعكسا لأفكار ممتدة في عمق الموروث السيسيوثقافي فصورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية هو دراسة لمرحلة هامة وجزء لا يتجزأ من حياة الأنثى، لذلك فالكتابة الروائية الأنثوية أبدعت في كتابتها عن الطفولة الأنثوية من منطلق المبادئ التي تؤسس لها {الهوية، التحرر، الذات، الآخر}، فنجد الروائية فضيلة الفاروق من الأقلام الأنثوية الجريئة التي تصور في روايتها "تاء الخجل" صورة الطفولة الأنثوية وسط عالم ذكوري يرفض التنوع ويهوى الخلاف، فتواصل الطفولة البحث في ذاتها عن التحرر فتكافح وتتمرد على الأعراف من أجل إعتراف الآخر بذاتها ووجودها، وهو واقع دفع بالأنثى إلى الدرجة التي تتصل من ذاتها، لذلك فكتابة الأنثى على هذه المواضيع تتعدى الجمالية، لتجعل من الكتابة هي الأنثى ذاتها، وفي البحث أعتمد على المنهج التاريخي القائم على آلية الوصف والتحليل، الذي يتناسب مع دراسة موضوع البحث، وتكييفه للإجابة على الإشكالية التالية:

- 1_ ماهي أبعاد الطفولة الأنثوية في المخيال السردي الجزائري؟.
 - 2_ ماهي الإحالة الدلالية لواقع الطفولة الأنثوية في رواية "تاء الخجل" لفضيلة الفاروق؟ .
- إن البحث في مفهوم الطفولة من الناحية اللغوية تتحدد دلالاته من خلال تواجد اللفظة في المعاجم العربية: فالطفولة على وزن فعولة والتي تأخذ مدلول الحركة والتغير، ويبدأ تحديد مفهومها من التعريف بالطفل كونها تمثل مرحلة الأساس له، فقد جاء في لسان

العرب في مادة {طفل}: "طفل طفالة ويقال جارية طفلة إذا كانت رخصة والطفل والطفلة الصغيران، والطفل الصغير من كل شيء يبين الطفل والطفولة لا فعل له"⁽¹⁾.

يتضح من خلال هذا أن الطفولة هي السياق الأولي لعمر الطفل، يكون الطفل عاجزا وضعيفا مرتبطا في نشاطه بالغير، ويأخذ مصطلح الطفل دلالة المولود في معجم مختار الصحاح: "طفل المولود وولد كل وحشية أيضا طفلا وجمع أطفل"⁽²⁾.

ويظهر من التعريفين السابقين أن مصطلح طفل لا يأخذ بعين الاعتبار التمايز البيولوجي والنفسي بين جنسي الأنثى والذكر، بل هو مفهوم جامع يستوي فيه الجنسين.

إن الإنسان طوال مساره الحياتي في سيرورة مستمرة نحو تقدم العمر وجريانه إلى

محطة معينة، يكون فيها الإنسان خاضعا لزمان طبيعي غير متناهي الوجود يسير دوما نحو الأمام دون أن يرتد إلى الوراء "عبارة عن جريان منتظم"⁽³⁾، إنه زمن أحادي الإتجاه، يبدأ عمر الإنسان فيه من ولادة تمر بمرحلة الطفولة حتى البلوغ إلى نهاية تكون خاتمة لمراحل إسترسالية منتظمة تنتهي بالوفاة، تتحدد فيها الطفولة من الولادة حتى البلوغ، كمرحلة يستوي فيها الجنسين أنثى وذكر "الطفل هو ولد حتى البلوغ، ويستوي فيه الذكر والأنثى والجمع أطفال"⁽⁴⁾.

الطفولة هي المرحلة المبكرة من حياة الإنسان، وهي المنطلق الأول له، واللبننة الأساسية في تكوين وإعداد شخصية المستقبل، يكون فيها الطفل ضعيف يحتاج إلى العناية والإهتمام، من أجل النمو وإكتمال النضج يكون الطفل فيها محملا بالمواهب بصفة فطرية تحتاج للصقل من أجل الإكتساب "يولد الطفل وفي داخله قدرات ومواهب لا تلبث أن تكتشف، وتظهر كلما ترعرع وتجدد الربيع في حياته، وقد تحتاج الموهبة إلى من يكتشفها عند الطفل وينميها، كالأسرة والمدرسة والجهات الأخرى التي تهتم بتربية الجيل"⁽⁵⁾.

يحدد علماء النفس أن الطفولة كمرحلة أولية من عمر الإنسان، تمر بمراحل يمكن تصنيفها كالتالي:

- 1_ مرحلة الطفولة المبكرة { 2 سنة / 6 سنوات}: وفيها يتعلم مهارات أساسية إستنادا لما تقدمه له الحواس.
- 2_ مرحلة الطفولة المتأخرة {6 سنوات/12 سنة}: وفيها يبدأ الطفل بإدراك الأحداث بمنطلق دلالي مجرد.
- 3_ مرحلة المراهقة المبكرة {12 سنة/ 15 سنة}: يكون الطفل فيها في حالة من لا إستقرار، من خلال تمازج النفسية بين ما هو كائن "طفل" مرتبط بالحاضر وراهنه، وبين مراهقة قائمة على تجاوز حدود الحاضر " فالمرهق فرد يفكر بعكس الطفل، خارج حدود الحاضر فيحظر النظريات لكافة الأشياء، واجدا لذاته في إعتبرات غير راهنة بشكل خاص، بالمقابل الطفل لا يفكر إلا أثناء الفعل الراهن ولا يحضر نظريات حتى لو سجل المراقب عودته الدورية إلى ردود فعل متشابهة"⁽⁶⁾.
- وتحمل الطفولة خصوصية تميزها عن باقي المراحل العمرية للإنسان من حيث السمات التي تميزها:
- 1_ خصائص عقلية: يتميز الطفل في هذه المرحلة بالواقعية، فيمزج الأحلام بالواقع، ويشكل حب الإستطلاع والتساؤل المستمر أهم خصائصه باحثا عن إشباع فضوله الذي لا يتوقف.
- 2_ خصائص إنفعالية: يشكل الجانب الإنفعالي أهم ما يمكن ملاحظته على الطفل من خلال تبيان حالة لا إستقرار ولا ثبات في ذاته، تغلب عليه المزاجية لتتأرجح بين كثرة الإنفعالات وسرعتها {الخوف/ سرعة الإستجابة للمثيرات} وكلها دلائل على معالم الضعف والمحدودية، فيكون في بحث دائم على إشباع تلك الإضطرابات الإنفعالية بمختلف الوسائل "تجد في سعيه نحو الإستقرار والإطمئنان، يحاول أن يلبس الظواهر أقمعة يؤولها كما يشاء ويفسرها كما يرغب، والطفل هو الكائن الوحيد الذي يقوم بهذه اللعبة لكي يبقى على مشاعره وأفعاله في حال إستقرار وتوازن وأقرب كائن يستعين به في عملية التنكر هذه هو الحيوانات لأنه أعظم الكائنات عفوية"⁽⁷⁾.

فالطفولة من خلال المفهوم الكرونولوجي تتعلق بمرحلة أولية من عمر الإنسان، فإنها من الجانب السيكولوجي محطة لإسترجاع وإستحضار الذكريات تتعلق بمرحلة الصغر على شكل صور متقطعة ومشوشة، تكون فيها معالم الطفولة غير كاملة فنستحضر الذكريات الطفولية ويغيب الكثير من تفاصيلها، تبعا لقيمة كل ذكرى في لا شعور الإنسان.

إن مصطلح "الأنثوية" يعرف حالة من لا إستقرار ولا ثبات للمدلول، وهو يشهد جدالا فكريا وفلسفيا متشعبا يمتد إلى سياقات إبستيمولوجية لها أسسها في الساحة النقدية، فهو مصطلح يعرف جدلية كبيرة وتتعدد حوله الرؤى وفق مستويات سيبيوثقافية عديدة ومتنوعة، إلا أن المصطلح "الأنثوية" من الناحية اللغوية يعرف بعض الإجماع بما تعلق بالأنثى كنقيض للذكر، حيث جاء في لسان العرب في مادة {أنث}: "الأنثى خلاف الذكر، من كل شيء والجمع إناث والإناث جماعة الأنثى، ويجيء في الشعر الأنثي، والتأنيث خلاف التذكير وهي الأنثاء، ويقال هذه المرأة أنثى إذا مدحت كاملة النساء"⁽⁸⁾.

حيث يتبين أن مصطلح "الأنثوية" هو ما تعلق بجنس "الأنثى" كإختلاف قائم على الجنس إنطلاقا من رؤية بيولوجية ونفسية.

إن الجدل الحاصل في مصطلح "الأنثوية" يحمل رؤية ممتدة في عمق العرف

الإجتماعي ذو خلفيات سيبيوثقافية تتباين في الأخذ بين مصطلحين هما:

1_ الأنثوية {féminine}	2_ النسائية {féminisme}
------------------------	-------------------------

حيث يرى عديد النقاد أن مصطلح "الأنثوية" أنسب للدلالة على صفات جنس الأنثى

التي هي عليها "ذلك أن مفهوم الأنوثة يحمل مفهوم ما تقوم به الأنثى وما تتصف به وما تتضبط إليه، فاللفظ الأنثى يستدعي على الفور وظيفتها الجنسية وذلك لفرط ما أستخدم اللفظ لوصف الضعف والرقة والإستسلام والسلبية"⁽⁹⁾.

في حين أن مصطلح "النسائية" féministe يلقى رفض لدى عديد النقاد والباحثين

لما تحمله دلالة المصطلح من عنصرية تتعلق بالنظرة الدونية والإحتقارية للمرأة "كلمة

نسائي تحمل دلالة مشحونة بالمفهوم الحريمي الإحتقاري وهذا ما يدفع المبدعات إلى النفور على حساب هويتهم" (10).

فنجذ الدكتورة "زهراء جلاصي" من الناقدات اللواتي يدافعن عن مصطلح "الأنثوية féminine" ويؤيدون إستخدام مصطلح "الأنثوي"، ذلك أن مجال الإستخدام الدلالي عليه أوسع، على غرار مصطلح "النسوية féministe" الذي يعد مدلوله منغلق ومحدود. حيث تقدم الدكتورة "بايزيد فاطمة الزهراء" بحثاً مميزاً لتجاوز الجدال بين الأخذ بمصطلح الأنثوية أو النسوية" فكلمة "أنثى femelle" تشير إلى العناصر البيولوجية البحتة التي تميز النساء جنساً عن الرجال، أما كلمة "أنثوي féminine" فتستعمل إلى الإشارة إلى ما تفرضه المبادئ الثقافية والإجتماعية البطريركية من أنماط الجنس والسلوك، أما "النسوية féministe" تشير إلى قضية سياسية تتعلق بحرية المرأة الجديدة التي بزغت أواخر الستينات من القرن الماضي.

حيث يعرف المصطلح حالة من عدم الإستقرار والانتقال الدائم، فهي في اللغة الإنجليزية "féministe" يقابلها في اللغة العربية "النسوية" فنجد: "الأنثى femelle": وهي صفة وإسم في الوقت نفسه دون الإختصاص بجهة معينة ويدخل فيها كل ما هو في جنس الأنثى.

"الأنثوي féminine": وهي تشير إلى التمتع بصفات ينظر إليها على أنها مطابقة للنساء مثل اللطف.

أما "النسوي féministe": وهي مذهب يدافع عن النساء والمساواة مع الرجل (11).

فالطفولة الأنثوية هي مرحلة الأساسية والمنطلق الأولي في عمر المرأة، فالبحت في صورة الطفولة الأنثوية ليس مجرد إشتغال على مرحلة عمرية مفرغة، بل هي منطلق حياتي مهم مفعم بالدلالة السيكولوجية، لا تتحدد كمرحلة عمرية فقط بل هي وجود وذات وهوية المرأة ذاتها لا يمكن فصلها لأنها جزء لا يتجزأ من منظومة حياتية لها تجلياتها الإبستمولوجية في عرف المجتمع، وهي تعكس دلالة تحمل كثير من السوداوية والدونية

واللتصل لذاتها من طرف الآخر، فهي نظرة لا تقوم على جانب بيولوجي و نفسي فقط بل تتعداه على العرف الإجتماعي الذي أسهم في تعميق الهوة بين الأنثى والذكر لتصل درجة نكران وجودها وبصور القرآن الكريم تلك النظرة القاتمة للذكر عن الأنثى في قوله تعالى: "وإذا بشر أحدهم بأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم"⁽¹²⁾.

إن وجود الأنثى في العالم الذكوري محصور في زاوية ضيقة فبقدر ما هي مصدر للحياة إلا أنها تحمل إحباطا وإحتقارية في حق الجنس الأنثوي، إنه وجود غريزي باحث بإستمرار عن الإشباع، مما يجعل وجود الأنثى وجود جسد وهي لا تخرج عن هذه الدائرة، فالجسد بالعمل الفني حسب بانيك ريش يتموضع عبر صفحات خاصة يحدده البناء العلائقي المرسوم عبر معجم يحتوي على التعامل بالألوان والروائح وهذه الشخصية تضع الشخصية الأنثوية في مواجهة الأشياء، مواجهة العالم ومواجهة شريكها الرجل في علاقة حميمة تلخص رغبتها في الحياة، وقد تمزج روحها بجسدها حتى الإندماج لتكون شيئا مرغوبا من طرف الرجل "هكذا تتأجج الذات بين الإحساس المؤلم بتبعيتها لما هو سائد والإعتراف به كواقع وبين الإنصات إلى رغبات الجسد السالبة"⁽¹³⁾.

إن الرواية الجزائرية جزأ لا يتجزأ من الأدب العالمي، حيث يرى النقاد أن الرواية الجزائرية حديثة النشأة، فأول رواية جزائرية مكتوبة باللغة العربية كنموذج إستوفى معالم الرواية يعود إلى سنة 1971م، إلا أن الرواية الجزائرية قطعت مرحلة هامة في النضج، خاصة مع كوكبة من الروائيين في فترة الستينات والسبعينات والثمانينات ونهاية التسعينات، تتراوح بين الكتابة الذكورية في صورة {محمد ديب، محمد رضا حوحو، طاهر وطار، وسيني الأعرج، مولود فرعون... وآخرون}، وبين الكتابة الأنثوية في صورة {زهور ونيسي، أسيا جبار، أحلام مستغانمي، فضيلة الفاروق...} وكثيرات هن المبدعات ممن كتبن في الرواية الجزائرية إلى الآن، فإستطاعوا في أعمالهم الروائية أن يعكسوا صورة الجزائر في مظاهرها الحياتية السائدة إجتماعيا وثقافيا وسياسيا وفكريا ذلك أن الرواية كما يقول أحمد الدغمومي: "قبل أن تختص الرواية بخاصيتها الأدبية، فهي قبل ذلك وبعد شكل من أشكال الثقافة"⁽¹⁴⁾.

ولما كانت الرواية جزءا من الثقافة، فهي في تفاعل مستمر مع متغيرات العلوم خاصة ما تعلق بعلم النفس الذي يتناسب في نظرياته وتجليات الإبداع في الأدب خاصة الرواية، فكان للتغير الحاصل في علم نفس الأطفال بإنقسام علم نفس الطفل عن علم النفس العام سنة 1879م، الأثر البالغ تغيير دفة الموضوعات في الرواية في إشتغال على صورة الطفل، مما يولد قارئ من فئة جديدة " ولم يكتب أدب الطفولة ملامحه قبل إنفصال علم النفس الطفل من علم النفس العام، وإن كان الدارسون يحددون ولادة علم النفس العام سنة 1879م فقد تم إنفصال علم النفس الطفل عنه في ثلاثينيات القرن العشرين، وغن ولد تدريجيا ومهدت له دراسات كثيرة منذ القرن السابع عشر، مما أبرز الطفل على الساحة الثقافية فطالب الأدباء بزاد ثقافي يوازي ما يقدمونه للكبار" (15).

فالطفولة من المواضيع التي لا تخلوا الرواية من نسجوها وحضورها في المتن المحكي، والتي لم يغفل الروائيون في إشتغال عليها وإعطائها أبعاد دلالية موحية ومتعددة تعكس صورة الطفولة في الواقع، ذلك أن الطفولة لا تتحدد كتجريد يرتبط بالواقع فقط، بل للطفولة وجودها داخل الرواية من خلال الشخصية التي يبيلورها الراوي ويعطيها أدوار تتناسب وصورة الطفولة في الواقع، تكون الرواية فيها حوصلة إنعكاسية عن الواقع "الرواية هي إشتغال في مجاهل الذات والتاريخ والمجتمع والوجود، عبر لغة واصفة دون البقاء في دائرة المركز الواحد، هي رؤية سردية ونسق أسلوبية أو قل هي محصلة خبرة السارد الخارج نصي" (16).

فصورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية، هي بحث عن مدى حضور شخصية "الطفلة" داخل المتن المحكي، فإن كانت هذه الطفلة في الواقع تحي بحركية تجريدية، فإن هذه الحركية في الرواية تتحدد بلغة تعطيها دلالة تتلائم والمدلول الذي يريده السارد كمنعكس لشخصية الطفولة في الواقع " فالشخصية بالنسبة لديهم صورة مصغرة للعالم الواقعي" (17).

إن صورة الطفولة في الروائية الجزائرية حاضرة بمستويين، وفق سياقين معينين هما:

2_ صورة الطفولة في الريف {القرية}

1_ صورة الطفولة في المدينة {الحضر}

1_ سياق الحقبة الإستعمارية	2_ سياق الجزائر المستقلة خاصة في سنوات الجمر إبان التسعينات
----------------------------	---

حيث يحمل الروائي دلالة صورة الطفولة في الرواية من خلال تباين المستوى وفق سياق معين الذي يظهر فوارق عدة تأثر على دلالة شخصية الطفولة في المتن المحكي وهي دلالة لا تخرج على التالي:

1_ دلالة إجتماعية:	الفقر، اليتيم، الهجرة، التسول، تلميذ، مأكثة في البيت، مثقفة، شخص عادي، مراهق، أخ، أخت ...
2_ دلالة نفسية:	القهر، البؤس، الشقاء، الحيرة، العنصرية، الحب، التمرد، المسؤولية، الدهشة، الغضب ...
3_ دلالة مثالية {قيم سامية}:	الهوية، حب الوطن، البطل، القدوة، الكفاح، الوفاء.

فوجد في المتخيل الروائي لمحمد ديب { 2003/1920 } وهو أحد خامات الأدب الجزائري، يوظف في ثلاثيته الشهيرة "الدار الكبيرة" 1952م، "الحريق" 1954م، "النول" 1957م، صورة الطفولة الجزائرية في مستوى هو المدينة، ويحملها دلالات إجتماعية ونفسية وفق مبدأ سامي، وإن كان المتخيل في صورة الطفولة عند محمد ديب قائم في سياق الحقبة الاستعمارية تتوافق مع سنوات الثورة التحريرية.

فأبدع محمد ديب في ثلاثيته رسم واقع الجزائر في زمن الحقبة الاستعمارية، فبرع في رسم لوحة معبرة عن معاناة وطنه الجزائر تحت سيطرة الإستعمار، من خلال تجسيدها في شخصية "عمر" الذي يشكل حلقة وصل بين الأجزاء الثلاثة: "عمر البطل الجائع اليتيم، يرى في أسرته معاناة الجزائر ويستلهم من أمه الصمود "لالة عيني" والتشبث بالحياة من خلال ماكنة الخياطة كوسيلة للتصدي للجوع"⁽¹⁸⁾.

ونفس الصورة نجدها في المتخيل السردى عند الروائي "مولود فرعون" {1962/1913} في روايته "ابن الفقير" 1950م، وإن كان المستوى الذي يشتغل عليه هو صورة الطفولة في الريف، وهي لا تخرج عن الدلالات السابق ذكرها. إن الطفولة الأنثوية كجزءاً من عالم الطفولة، تشغل قيمة مهمة في المتخيل السردى الجزائري، هذه القيمة التي تجعل لها خصوصية تنعكس حتى من الناحية الدلالية في توظيف شخصية الطفولة الأنثوية، لتحمل كثيراً من التباين والإختلاف ينطلق من الإختلاف ذاته القائم بين المرأة والرجل والذي تدخل فيه سياقات سيبيوثقافية عديدة "الإختلاف بين الرجل والمرأة قائم، ولا يقتصر على الفوارق البيولوجية وما يتولد عنها على المستوى النفسى، فهناك إرث تاريخي وثقافي وتجارب طويلة زادت حدة الإختلاف بل إن النظام السياسى والإجتماعى، والمؤسسات الدينية والإقتصادية يولد ذلك كله علاقة الشخصية بالفضاء والأشياء والعام والخاص وبين الذات والآخر"⁽¹⁹⁾.

تأخذ شخصية الطفولة الأنثوية في المتن المحكى، أدوار متباينة في حالة لا إستقرار ولا ثبات، بين مستويين من الكتابة {كتابة ذكورية/كتابة أنثوية}، تتشكل الدلالة خلالها وفق لإستجابة الكاتب للسياقات الخارجية، فتكون شخصية الطفولة الأنثوية في المتن المحكى قائمة على دلالة {القهر والبؤس والسعي لتحرر الذات من إحتقارية الآخر} من جهة، وقد تحمل دلالة التجاهل لذاتها ووجودها، تجسد رفض وجود الأنثى في عالم إجتماعية يحتكم لسلطة الذكر، تكون فيها الأنثى خاضعة لعرف إجتماعى مشوه ومجحف في حق الأنثى، فشخصية الطفولة الأنثوية في المتن المحكى الذي يصور الريف، تختلف عن الشخصية الأنثوية في المتن المحكى عن المدينة، تبعا لرؤية يحددها السارد ذاته "جميعهم ضد القهر والإستغلال وباحثين عن الحرية، لكن هذا لا يعنى إلغاء الإختلاف بين الكاتب والكاتبة، بل هنالك إختلاف في الإستجابة للمؤثرات الخارجية في تفسير العالم"⁽²⁰⁾.

إن الكتابة الأنثوية في الرواية الجزائرية في إشتغالها على شخصية الطفولة الأنثوية في المتن المحكى، تعكس من خلالها تجارب شخصية وأحاسيس عاشتها، مما يجعل الكتابة

عند المرأة هي حياة المرأة ذاتها، وبالتالي تمنح لأدبها نكهة خاصة "إن الأدب الذي تكتبه المرأة له نكهة أخرى، وهو في بعض الحالات يعكس تجارب شخصية وأحاسيس عاشتها دون الرجل، خصوصا حين كان جدار العزلة يرتفع بين الجنسين"⁽²¹⁾.

إن صورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية، لا يمكن أن تكون بتلك الصورة المظلمة إلى حد بعيد فعلى الرغم من معاناتها وكفاحها للتحرر وإثبات الهوية والذات، وفق سياق معين، إلا أنها تأخذ في عديد الكتابات صورة مشرقة في ثوب الطفلة المتعلمة والمتقفة التي تزاوّل الدراسة، مثل ما تصوره الروائية القديرة "زهور ونيسي" { 1936م/... } في رواية "دعاء الحمام" 2002م، فالشخصية الأنثوية هي الغالبة في الرواية تحمل دلالات ثقافية تختلف عما كانت عليه الطفولة الأنثوية في باقي الروايات حتى وإن كانت الرواية تؤرخ لسياق الحقبة الاستعمارية⁽²²⁾، فنجد الروائية تصور شخصية الطفولة الأنثوية من خلال:

شخصية الطفولة الأنثوية في رواية "دعاء الحمام"	دلالتها في المتن المحكي
مريم	فتاة عادية
سميرة	طالبة

رغم ذلك فالطفولة الأنثوية من الناحية النفسية تبقى تواجه عديد من الإضطراب والكبت في ظل مجتمع ذكوري متسلط "إن المتخيل السردي الأنثوي يضع طفولة الأنثى ضمن منقسم متعدد داخل إيديولوجيا ذكورية مهيمنة يجعل حضورها غائبا وفضائها مشحونا بالرقابة والكبت وليس هناك من فضاء ممكن بالنسبة للمرأة غير ما هو مراقب ومكبوت"⁽²³⁾.
 إن شخصية الطفولة الأنثوية في المتن المحكي داخل الرواية الجزائرية ليس توظيفا مفرغا من الدلالة، حيث هو إحياء لقيمة الأنثى في الحياة وإثبات وجودها الذي يبقى الآخر يرفضه، فتكشف الطفولة الأنثوية في الرواية أسرارها التي لم تستطع البوح بها في الواقع، لذلك فلا أحد يستطيع أن يعبر عن تلك التجربة سوى الأنثى ذاتها في كتاباتها الروائية،

وفضيلة الفاروق روائية جزائرية أبدعت في روايتها "تاء الخجل" بالتعبير عن معاناة الأنثى عامة والطفولة الأنثوية خاصة، في ظل مجتمع ذكوري خاضع لعرف إجتماعية يحمل أفكار موروثه مشوهة عن الأنثى، إن الطفولة الأنثوية التي تشخص لها في روايتها تتعلق بمرحلة الطفولة المتأخرة التي تلج عالم المراهقة حيث تؤرخ لها بسن 14 سنة في الرواية، من خلال فضاء وجودي هو البيئة الريفية، وفق سياق تاريخي هو فترة التسعينات التي شهدت حقبة سنين الجمر بالجزائر، فتحمل فضيلة الفاروق بطلتها في الرواية وهي نوع من أدب السيرة صورة الطفلة الجريئة والمتمردة، تواصل كفاحها ضد مجتمع يحمل نظرة إحتقارية ويمارس ضدها طقوسه المجحفة التي لم تتولد من التمايز البيولوجي والنفسي، بل هي نظرة متوارثة من عرف إجتماعي ممتد في الإرث البشري الطويل، هذه النظرة السوداوية شغلت كل الفضاء الوجودي للحياة، مما إنعكس على شخصية البطلة "المراهقة" دخل المتن المحكي بكونها شخصية مدركة لعمق المأساة التي تمتد في عمق التاريخ وليست مرتبطة بالحاضر فقط، حيث تقول: "منذ العائلة، منذ المدرسة، منذ التقاليد، منذ الإرهاب، كل شيء عني كان تاء للخجل، كل شيء عنهن كان تاء الخجل، منذ أسمائنا التي تتعثر عند آخر حرف، منذ العبوس الذي يستقبلنا عند الولادة، منذ أقدم من هذا"⁽²⁴⁾.

تصور الروائية شخصية البطلة " المراهقة" وهي تعيش حالة من الحب رغم سوداوية الواقع، فسن 14 سنة يمنح للبطلة عفوانا الأمن والإطمئنان، حيث تجد البطلة في الحب ملجأ ومنتفسا، تنسى به قساوة و مأساة الحياة التي تواجهها من نظرة المجتمع للأنثى، مما يجعلها في حالة من لا إستقرار وفي تساؤلات مستمرة مع ذاتها دون أن تجد لها إجابة حيث تقول: "وأنا على شرفة الرابعة عشرة، حين دغدغت مشاعري بنقائك، عشت الحيرة لأول مرة، أبصف النساء أنا أم بصف الرجال؟، لماذا إختلفت عن كل الرجال؟، ألأنك إبن إمراة على رأي أهل الحي؟، أم لأنك إختلفت من أجل؟، عشت أجمل قصة حب في ذلك الزمن الباكر، ومعك في الغالب كنت أنسى قساوة الرجال"⁽²⁵⁾.

شخصية البطلة في المتن المحكي صاحبة ذاكرة قوية وكثيرة إستحضار الذكريات من تلافيف الماضي

وشديدة التعلق بالتاريخ القديم، فهو زمن يحمل أجمل لحظات الحياة في ذاتها، فالماضي لا يبدوا بالنسبة لها زمن عابر للأحداث، بل هو متنفس تجد فيه البطلة فرصة لصياغة شخصيتها التي إكتسبتها من تمازج تأثرها بشخصيات عدة من الأسرة، حيث تقول: "شيء من لالة عيشة، أشياء كثيرة من زهية والدتي، وأشياء من أخريات... أحب ذلك الماضي، رغم ألوانه الداكنة"⁽²⁶⁾.

تمنح الروائية شخصية البطلة "المراهقة" دور شخصية المراهقة المتمردة على أعراف العائلة، حيث يتبلور هذا التوجه في التمرد من ظروف خارجة عن ذاتها، فيجعل رد فعلها هذا يتسم بالحتمية، بسبب ما يحملها المجتمع من نظرة إحتقارية لجنس الأنثى ويجعل دورها يقتصر على فعل أشياء محدودة ومؤقتة، مما اجبر البطلة في لحظة نفسية متطورة عن هذا الوضع إلى درجة التجرد من ذاتها الأنثوية، هذا التمرد ليس مجرد قرار نفسي متعلق بذات البطلة، بل هو سلوك ظاهر مجرد، ترجمه حكم الأسرة على البطلة بأنها مختلفة عن باقي البنات في الأسرة والقرية، حيث تقول: "كنت مشروع أنثى، ولم أصبح تماما بسبب الظروف، كنت مشروع كاتبة ولم أصبح كذلك إلا حين خسرت الإنسانية إلى الأبد، كنت مشروع حياة ولم أحقق من ذلك سوى عشره ... العمة كلثوم أصرت: إنها تختلف عن بناتنا"⁽²⁷⁾.

إن شخصية الطفولة التي تشخص لها الروائية في "رواية تاء الخجل" هي طفولة تعيش مرحلة إنتقالية {مرحلة الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة}، والتي تكون فيها الأنثى في حالة من لا إستقرار ولا ثبات، وفي حالة بحث دائم عن نموذج تقتدي به في حياتها، إنها أنثى ضعيفة في ظل مجتمع ذكوري متسلط، فعلى الرغم من كونها تعيش قصة حب جعلتها تنسى مأساتها النفسية نسبيا، إلا أنها في حالة من التأمل باحثة عن من يأخذ بيدها فيمنحها الثقة والقوة في ذاتها ووجودها، ذلك أن القدوة شيء مهم في مثل هذه المرحلة من العمر أين تحتاج ليكون سلوكها ناضجا وحياتها مستقرة فتجد البطلة في شخصية العمة {لالة عيشة}

النموذج الذي تبحث عنه، خاصة أنها استطاعت أن توجد لذاتها مكانة في ظل وسط ذكوري كسبت إحترامه، حيث تقول: "أما بالنسبة لي ف"لالة عيشة" كانت امرأة قوية، إذ كانت تجالس الرجال وتشاركهم أحاديثهم السياسية وقد أخبرتني ذات يوم أنها كانت أول امرأة تتخرط في الحزب أيام الثورة، وأنها دفعت أربع دورو، كقيمة للإشتراك"⁽²⁸⁾.

تكتسب البطلة شخصية إنفعالية داخل أصوار الأسرة، هذه الإنفعالية التي تتولد من خلال تأثرها بحالة عدم الإستقرار في محيط الأسرة، من حيث هي أسرة كبيرة ومتعددة في تركيبها، فنظام الأسرة قائم على تمايز طبقي يفصل بين الرجال والإناث، مما يجعل من نسوة البيت أفراد من درجة ثانية تكون فيها الدرجة الأولى للرجال، فهي أسرة تشهدا في منظومتها الإختلاف والتمايز على أسس بيولوجية وأعراف إجتماعية مشوهة، فحالة البطلة المنفعلة هي منعكس لهذا النظام، فتكون البطلة رافضة ومعارضة ومتمردة على هذا الوضع الذي يتجلى بشكل أكبر في فترة غداء الجمعة، حيث تقول: "لكن بكاء أمي الصامت، وخلاقات صبايا العائلة تجعلني متوترة أحيانا، أما ما يجعلني فعلا أفقد أعصابي، فهو فترة الغداء يوم الجمعة إذ علينا نحن النساء أن ننتظر عودة الرجال من المسجد وبعد أن ينتهوا من تناول الغداء يأتي دورنا، نحن النساء كنا جميعا نجتمع عند العمة تونس وكنت أكره ذلك التقليد الذي يجعل منا قطيعا من الدرجة الثانية"⁽²⁹⁾.

إن شخصية البطلة في المتن المحكي تشهد ثباتا في مبادئها التي تقوم عليها، فهي إن كانت شخصية مختلفة عن باقي البنات في الأسرة، إلا أنها ثابتة في موقفها في تمردا على أعراف القرية في الأسرة أو في المجتمع، ويتبلور هذا في إمتعاضها ونكرانها لعرف الزواج، فعلى الرغم من كونه سياق إجتماعية تسوده معالم الفرح والسرور، إلا أنها تجد فيه تجليات للحزن والمأساة يختزل فيه وجود الأنثى وتدوب ذاتها الأنثوية لغريزة الرجال، حيث تقول: "ما أبشع أن تكون الواحدة منا عروسا، إقتربت مني سهام إبنة عمي ووشوشت لي: هل رأيت العروس كانت مصفحة، لم أجبها، كنت قد كرهت نفسي، وكرهت منظر النساء فعدت إلى بيتنا وحاولت أن أنسى ذلك العرس، كانت تلك الطقوس غريبة على عائلتنا"⁽³⁰⁾.

إن الروائية فضيلة الفاروق في روايتها "تاء الخجل" تكشف عن تلك النظرة الذكورية التي تحصر وجود الأنثى عامة والطفولة الأنثوية خاصة في زاوية الجسد، فهي نظرة مجحفة لجنس الأنثى، فهي تكشف من خلال روايتها في تصوير شخصية الطفولة الأنثوية عن عمق المعاناة التي عاشتها في مرحلة العشرينيات السوداء، فتجد في الكاتبة وسيلة للبحث عن ذاتها وغاية للتحرر من تلك النظرة القاتمة للآخر ضد الأنثى، وفي الرواية تشخص الروائية كيف أن البطلة ترفض وتتصدى لتلك النظرة الذكورية المحملة بمعالم الإحتقار والغريزة وتواجهها بكل جرأة وثبات، دون أن تأثر عليها الإغراءات والتحرشات، فشخصية البطلة في المتن المحكي شابة نزيهة شريفة ووفية لحبها، حيث تقول: "إياك أن تلمسني ثانية، عوى كلب بالجوار، إبتسم ياسين بخبث: أيتها العاهرة، نصر الدين أحق بك مني؟ صفعته وهربت... في اليوم التالي إلتقيته على السلام أوقفني بهدوء وقال: كوني مطيعة، وإلا فضحتك، كان لي رأس يابس نظرت إليه وقلت دز معاهم"⁽³¹⁾.

إن فضيلة الفاروق في روايتها "تاء الخجل" تحمل شخصية البطلة دلالات نفسية ذاتية تكتسيها البطلة ذاتها من خلال معالم الوفاء والحب والشخصية القوية، فهي بطلة دائمة التأمل والإطلاع، تتفاعل مع متغيرات المحيط الذي يحيط بها بمؤثرات مختلفة يكون وجودها فيه غير ثابت على حال وغير مستقر فهي تسعى بإستمرار للإثبات ذاتها كشخصية أنثوية متقفة واعية تسعى لمعايشتها وجودها بصورة متمردة ومعارضة رافضة لما لا يتوافق مع معالمه الأنثوية التي تتولد عن ذاتها كأنثى تعيش متغيرات صاغت تأثيرها على ذاتها، فتجد في عالم الدراسة ملجأ تتخلص فيه من معاناتها وفرصة لتعانق أحلامها الطفولية في أن تصير كاتبة، ففضيلة الفاروق من هذا الجانب أبدعت في رسم شخصية البطلة بخروجها عن المتخيل الكلاسيكي الذي يختزل وجود الأنثى الريفية بين الأسوار البيت ولا يخرج عن متصور الغريزي، حيث تقول: "كانت في يدي قوة واحدة لا يمكن أن تقهر حب والدي للعلم"⁽³²⁾.

خاتمة:

_ إن البحث في صورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية، هو قراءة ثانية لما تحمله الرواية من دلالة في توظيف شخصية الطفولة الأنثوية في المتن المحكي، والذي تدخل فيه سياقات سيبيوثقافية مختلفة لتصوغ شخصية الطفولة الأنثوية في الرواية كمنعكس حقيقي لما هو موجود في الواقع.

_ إن مصطلح الأنثوية يعرف جدالا واسعا وحالة من لا إستقرار في الأخذ به، إلا أن أغلب النقاد يفضلون مصطلح الأنثوية على مصطلح النسائية، كون مصطلح الأنثوية يحمل مجمل الصفات التي تتوافق وجنس الأنثى مثل اللطف والحب، بخلاف مصطلح النسائية الذي يعني الدفاع عن حقوق النساء.

_ إن توظيف صورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية، يعكس نظرة الإختلاف والتمايز بين الأنثى والذكر وفق فوارق بيولوجية ونفسية، ويتعدى هذا التوظيف إلى درجة تدخل العرف الإجتماعي في بلورة فكرة الإختلاف بين الجنسين وفق أفكار مشوهة يحمل المجتمع ضد الأنثى والتي يحصرها في زاوية الجسد، مما يجعل وجود الأنثى في الواقع وجودا محصورا ومحدودا.

_ إن توظيف صورة الطفولة الأنثوية في الرواية الجزائرية، هو تجسيد لشخصية الطفولة الأنثوية فلمتن المحكي كمنعكس للواقع، حيث لا يخرج هذا التوظيف عن مستويين إثنين هما: (1) الطفولة الأنثوية في المدينة، (2) الطفولة الأنثوية في الريف، وفق سياقين هما: (1) سياق الحقبة الإستعمارية، (2) سياق الجزائر المستقلة خاصة فترة التسعينات، وهو توظيف يحمل دلالات متعددة ومتباينة، تباين الكتابة نفسها بين الكتابة الذكورية والكتابة الأنثوية.

_ إن الروائية فضيلة الفاروق في روايتها "تاء الخجل" أبدعت في تصوير لشخصية الطفولة الأنثوية، حيث عكست من خلالها معاناة ومأساة الأنثى في المجتمع الذكوري، وهو تشخيص جعلت من الكتابة فضاء تدافع فيه الأنثى وتواصل كفاحها للتحرر من النظرة الذكورية الإحتقارية، فكل ما شخصته الروائية في روايتها من شخصية البطلة هو عبارة عن أحاسيس

ومشاعر عايشتها في الواقع، فلا احد يستطيع أن يعبر عن ألم الطفولة الأنثوية سوى الأنثى ذاتها.

_ إن دلالة توظيف الطفولة الأنثوية في رواية "تاء الخجل"، بتلك الشخصية المتمردة والجريئة والثابتة في مواقفها، هو بحث عن نموذج أنثوي مستقبلي يحمل نفس تلك المعالم من أجل أتتى أكثر تحرراً.

الهوامش والإحالات

- (1) _ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صار، بيروت، لبنان، 2003، ص 167.
- (2) _ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، مادة "طفل".
- (3) _ عبد اللطيف الصديقي، الزمان وأبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1995، ص 75.
- (4) _ إبراهيم مصطفى وأخرون، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الطفولية، مجمع اللغة العربية، مصر، ط 4، 2004، ص 560.
- (5) _ أحمد حسن الخميسي، تربية الأطفال في وسائل الإعلام، دار النهار للنشر والتوزيع، باب الزوار، الجزائر، ط 1، 2014، ص 127.
- (6) _ جان بياجيه، سيكولوجية الذكاء، ترجمة بولند عنمانويل، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1988، ص 149.
- (7) _ عبد القادر عميش، قصة الطفل في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، 2003، ص 69.
- (8) _ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ص 169.
- (9) _ مفيد نجم الدين، الأدب النسوي إشكالية المصطلح، مجلة علامات، العدد 572، 15 رجب 1426هـ/ سبتمبر 2005، ص 167.
- (10) _ زهرة جلاصي، النص المؤنث، دار سراس للنشر، تونس، 2000، ص 10.
- (11) _ فاطمة الزهراء بابيزيد، الكتابة الروائية النسوية العربية بين سلطة المرجع وحرية المتخيل، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012، ص 21.
- (12) _ القرآن الكريم، سورة النحل، الآية 58.
- (13) _ محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص 19.
- (14) _ أحمد الدغمومي، الرواية المغاربية والتغيير الاجتماعي، دراسة سوسيو ثقافية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص 17.
- (15) _ إيمان البقاعي، المتقن في أدب الأطفال والصبايا لطلاب التربية ودور المعلمين، دار راتب الجامعية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص 38.

- (16)_ قالولي بن ساعد، الرواية هي إشتغال في مجاهل الذات والتاريخ والمجتمع، جريدة اليوم الأدبي، محاورة نوال لحرش، الصادرة يوم الأحد 05 أكتوبر 2002، ص 17.
- (17)_ عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص 97.
- (18)_ أبو يحي مزيان زينب، حكاية أدبائنا المشهورين "محمد ديب"، دار الفكر العربي، الجزائر، ج1، 2009، ص 12.
- (19)_ خالدة سعيد، المرأة التحرر والإبداع، سلسلة نساء مغربيات تشرف عليها فاطمة مرنيسي، نشر الفنك، المغرب، 1996، ص 42.
- (20)_ شرين أبو النجا، عاطفة الإختلاف قراءة في كتابات نسوية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1998، ص 43.
- (21)_ رشيدة بن مسعود، المرأة والكتابة سؤال الخصوصية وبلاغة الإختلاف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص 77.
- (22)_ محمد نور الدين أفاية، الهوية والإختلاف في المرأة والكتابة والهامش، ص 43.
- (23)_ أبو يحي مزيان زينب، حكاية أدبائنا المشهورين "زهور ونيسي"، دار الفكر العربي، الجزائر، ج2، 2009، ص 09.
- (24)_ فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2006، ص 11.
- (25)_ المرجع نفسه، ص 12.
- (26)_ المرجع نفسه، ص 14.
- (27)_ المرجع نفسه، ص 15.
- (28)_ المرجع نفسه، ص 22.
- (29)_ المرجع نفسه، ص 24.
- (30)_ المرجع نفسه، ص 26.
- (31)_ المرجع نفسه، ص 28.
- (32)_ المرجع نفسه، ص 29.